

المحاضرة رقم 03:

النظرىة البنائىة الوظىفىة ووسائل الإعلام

تعتبر علوم الإعلام والاتصال جزء من العلوم الاجتماعىة من منظور تفاعل الأنظمة الإعلامىة، كما أنه من العلوم الإنسانىة لتناوله الإنسان من منظور تفاعل الأفراد فىما بىنهم من جهة، وبىنهم وبن المحىط الذى عىشون فىه من جهة أخرى، وعلىه فهو ىتغذى من منابع معرفىة كثرىة منها علم الاجتماع لمحاولة تفسىر الظواهر الإعلامىة الاتصالىة، وبما أن علم الاجتماع الإعلامى فرع من علم الاجتماع فى أنه ىستخدم نظرىاته وطرقه ومناهجه ومبادئه فى دراسة الظواهر الإعلامىة، وسنتناول فى هذا المحور أهم المقارىبات السوسىولوجىة التى فسرت الاتصال والإعلام، وهى: البنائىة الوظىفىة، التفاعلىة الرمزىة، الدرست النقدىة، وسوف ىتم عرض منطلقات كل مقارىة أو مدرسة وتفسىراتها فى الإعلام السمعى البصرى.

1. مفهوم النظرىة البنائىة الوظىفىة:

تمثل النظرىة البنائىة الوظىفىة أكثر الاتجاهات النظرىة رواجاً فى علم الاجتماع فى الولايات المتحدة الأمريكىة وأوربا وأغلب دول العالم منذ ثلاثىينات القرن العشرىن، وخلال هذه الفتره ظهرت مؤلفات هائلة حول هذه النظرىة التى تعد من المعالم الرئىسىة لعلم الاجتماع الأكادىبى المعاصر.

وىرجع تسمىة هذه النظرىة بالبنائىة الوظىفىة إلى اعتمادها على مفهومىن أساسىىن فى تحلیل المجتمع وتفسىره، وهما: "البناء Structure" و"الوظىفة Fonction" المستمدىن أساساً من علم الأحىاء، وىمثل هذان المفهومان العمود الفقرى لهذه النظرىة. وىرجع الفضل فى صىاعة مصطلح البناء الاجتماعى إلى الأنثروبولوجى البريطانى (رادكلىف براون Radeliff Brown) عام 1940، حىث قرر أن البناء الاجتماعى هو مجموعة العلاقات الاجتماعىة الثابته والدائمه التى تربط بىن أعضاء المجتمع الذىن ىلعبون أدواراً معىنة وىشغلون مكانات اجتماعىة محددة، وىكونون بالتالى جماعات اجتماعىة متعددة داخل المجتمع.

وىتفق معظم علماء الاجتماع الآن على أن البناء الاجتماعى هو شبكه من العلاقات الاجتماعىة الثابته والدائمه بىن أفراد ىشغلون مكانات اجتماعىة محددة، مما ىؤدى إلى وجود مجموعة من النظم الاجتماعىة المتسانده، ىؤدى كل نظام وظىفة محددة لهم فى بقاء البناء الاجتماعى ككل. والافتراض الأساسى هنا هو بقاء هذا البناء ىتوقف على العلاقات بىن النظم المختلفه وأدائها لوظائفها.

أما مفهوم الوظىفة، فله استخدامات متعددة لدى منظرى الوظىفىة، إلا أن المعنى الأكثر قبولا والأوسع انتشاراً فهو أن الوظىفة هى الإسهام الذى يقدمه الجزء للكل، وهذا الكل قد ىكون المجتمع أو الثقافه، وهناك معان أخرى للوظىفة،

مثل الإسهام الذي تقدمه الجماعة لأعضائها، كما تستخدم بمعنى المهنة أو العمل، أو الإشارة إلى المنفعة التي يحصل عليها الشخص نتيجة ممارسته لأعمال معينة.

وقد أضاف (ميرتون Merton) بعدا جديدا لمفهوم الوظيفة حينما قام بصياغة مفهومي "الوظيفة الواضحة" و"الوظيفة الكامنة"، ويقصد (ميرتون Merton) بالوظيفة الظاهرة النتائج والأهداف الموضوعية والمقصودة التي يمكن ملاحظتها وتسهم في الحفاظ على النسق، أما الوظيفة الكامنة فهي تلك التي لم تكن مقصودة أو متوقعة.

إذن، تقوم هذه النظرية على أن المجتمع يمثل كلا مؤلفا من أجزاء مترابطة يؤدي كل منها وظيفة معينة من أجل خدمة أهداف الكل، ومعنى ذلك أن المجتمع ما هو إلا نسق يضم مجموعة من العناصر المساندة التي تساهم في تحقيق تكامله وتوازنه، فالبنائية تشير إلى تحديد عناصر التنظيم والعلاقات التي تقوم بين هذه العناصر، والوظيفة تحدد الأدوار التي يقوم بها كل عنصر في علاقته بالتنظيم الكلي، ويتحقق الثبات والاتزان من خلال توزيع الأدوار على العناصر في شكل متكامل وثابت.

2. الأفكار الرئيسية للنظرية البنائية الوظيفية:

تستمد هذه النظرية أصولها الفكرية العامة من آراء مجموعة كبيرة من علماء الاجتماع التقليديين والمعاصرين الذين ظهروا على وجه الخصوص في المجتمعات الرأسمالية، من أمثال: (أوجست كونت)، (إيميل دوركايم) و(هربرت سبنسر)، والعديد من علماء الاجتماع الأمريكيين المعاصرين مثل: (تالكوت بارسونز T. Parsons) و(روبرت ميرتون R. Merton) وغيرهم. وعلى الرغم من الاختلافات الموجودة بين هؤلاء العلماء إلا أنه يمكن تحديد أفكار رئيسية للنظرية البنائية الوظيفية فيما يلي:

1. البناء والنسق: تعتبر فكرة البناء أو النسق الاجتماعي من بين أهم الأفكار الأساسية لهذه النظرية، وهو ما ظهر بوضوح في تحليلات عالم الاجتماع الأمريكي (بارسونز Parsons) حيث جعل مقولة النسق الاجتماعي هي الإطار الفكري العام الذي تقوم عليه نظرية الأنساق الاجتماعية والتي تعتبر إحدى النظريات الهامة للبنائية الوظيفية المعاصرة، بحيث تشير هذه النظرية إلى أن المجتمع ما هو إلا بناء أو نظام اجتماعي يتكون من مجموعة من الأنساق الاجتماعية المتبادلة وظيفيا مثل النسق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعائلي وغيرها من الأنساق الأخرى التي تؤثر في عملية استقرار مكونات البناء الاجتماعي أو المجتمع ككل.

2. الوظيفة: وتتمثل في الدور الذي يلعبه الجزء في الكل أي النظام في البناء الاجتماعي الشامل، أي أن درجة الاستمرار والإطراء في البناء هي التي تحقق وحدته وكيانه، ولا يمكن أن تتم إلا بأداء وظيفة هذا البناء أي الحركة الديناميكية المتمثلة في الدور الذي يلعبه كل نظام أو نسق داخل البناء، فالوظيفة في البناء هي التي تحقق هذا التساند والتكامل بين أجزائه بحيث يفقد النسق أو البناء الاجتماعي معناه المتكامل لو انتزع من نظام ما. ويعتبر (بارسونز Parsons) مفهوم الوظيفة أساس لفهم أي نسق من الأنساق الاجتماعية، فالوظيفة تمثل النتيجة المنطقية لمفهوم النسق فهي توضح طبيعته وتعمل على تكيفه مع بيئته.

3. الخلل الوظيفي: يشير مفهوم الخلل الوظيفي إلى النقد الذي وجهه (ميرتون Merton) إلى مقولة الوحدة الوظيفية، حيث أن العناصر الثقافية والاجتماعية لا تكون بالضرورة وظيفية لكل مكونات النسق، وإنما تختلف درجات وظيفتها من مستوى إلى آخر، فالأديان مثلا كعامل من عوامل التكامل قد تصبح غير وظيفية في مجتمعات متعددة الأديان، والدين في هذه الحالة يتعرض لخلل في الوظيفة. فكل جزء من أجزاء النسق قد يكون وظيفيا حينما يسهم في تحقيق توازن النسق وقد يكون ضارا وظيفيا أي يقلل من توازن النسق وقد يكون غير وظيفي أي عديم القيمة بالنسبة للنسق. ولاشك أن التحقق من تأدية أو عدم تأدية (خلل وظيفي) كل نظام جزئي وظائفه داخل نظام المجتمع الكلي، ومدى تأثير ذلك على استقرار أو عدم استقرار النظام الاجتماعي الجزئي والكلي يجب أن يخضع لدراسات علمية تؤكد أو تنفي وجود الخلل الوظيفي.

4. البدائل الوظيفية: التي تشير إلى مدى التنوع الممكن والوسائل التي تستطيع أن تحقق مطلبا وظيفيا، فإذا كان مفهوم الخلل لوظيفي يعبر عن وجود نقص عناصر النظام تكون غير وظيفية ضمن نسق ما، فإن مفهوم البدائل الوظيفية تعني أن الوظيفية يمكن القيام بها بواسطة أطراف عديدة تتبادل هذه الوظيفة ويمكن لعنصر واحد أن تكون له عدة وظائف يمكن كذلك إنجاز وظيفة من عدة أطراف.

وعموما، يتفق الباحثون على عدد من المسلمات الخاصة بالنظرية البنائية الوظيفية، قام (ميرتون Merton) بتلخيصها فيما يلي:

- ✓ النظر إلى المجتمع على أنه نظام يتكون من عناصر مترابطة وتنظيم نشاط هذه العناصر بشكل متكامل.
 - ✓ يتجه هذا المجتمع في حركته نحو التوازن، ومجموع عناصر تضمن استمرار ذلك، بحيث لو حدث أي خلل في هذا التوازن، فإن القوى الاجتماعية سوف تنشط لاستعادة هذا التوازن.
 - ✓ كل عناصر النظام والأنشطة المتكررة فيه تقوم بدورها في المحافظة على استقرار النظام.
- يتضح مما سبق أن النظرية البنائية الوظيفية تنظر إلى المجتمع باعتباره نسق في حالة توازن، وهذا النسق هو بناء منظم وثابت مكون من عدد من الأجزاء المترابطة، ولكل جزء (أو نظام) من هذه الأجزاء وظيفة يؤديها للحفاظ على بقاء النسق وتوازنه.

3. تطبيق المقاربة الوظيفية على وسائل الإعلام والاتصال:

إن تطبيق المقاربة الوظيفية على وسائل الإعلام والاتصال يفترض أن هذه الوسائل عبارة عن عناصر الأنشطة المتكررة التي تعمل من خلال وظائفها على تلبية حاجات المجتمع، وتقوم العلاقة بين هذه العناصر وباقي العناصر والنظم الأخرى في المجتمع على أساس من الاعتماد المتبادل بين هذه العناصر والأنشطة لضمان استقرار المجتمع وتوازنه. وبما أن وسائل الإعلام والاتصال تقوم بأنشطة متكررة ومتماثلة في النظام الاجتماعي، فهي بذلك تساهم في تحقيق التوازن الاجتماعي للمجتمع، وبذلك أصبحت تشكل إحدى المكونات الأساسية في البناء الاجتماعي المعاصر.

ومن أهم فروض هذه النظرية نذكر:

- ✓ إن وسائل الإعلام والاتصال يجب أن تعكس بصورة أساسية الموجهات الأيدىولوجية والثقافية العامة، التي تعتبر الركائز الأساسية التي تقوم عليها المجتمعات الرأسمالية.
- ✓ إن لوسائل الإعلام أهداف وظيفية منذ مراحل نشأتها الأولى، وتكمن أهميتها في تحديد العلاقات المتبادلة بين وسائل ونظم الاتصال الجماهيري وبين بقية النظم والأنساق الاجتماعية الأخرى.
- ✓ طرحت هذه النظرية مجموعة من النماذج التي تعرف في دراسات الاتصال والإعلام بالنماذج الوظيفية أو نماذج التحليل الوظيفي التي تركز على تحليل الخصائص والوظائف والأهداف العامة التي تقوم بها وسائل الاتصال الجماهيري، اعتماداً على التحليل النظري من ناحية وإجراء الدراسات الميدانية من ناحية أخرى.
- ✓ اهتمت بالبحث في مدى تأثير وسائل الإعلام على ذوق الجمهور، حيث اعتبرتها مسؤولة على استقرار النظام ككل، فقد يكون لها تأثير إيجابي فيقال أنها "وظيفية"، وقد يكون لها تأثير سلبي فيقال أنها سببت "اختلال وظيفي".
- ويؤكد الاتجاه الوظيفي البنائي على أهمية تحديد العلاقة المتبادلة بين وسائل الإعلام والأنساق الاجتماعية الأخرى، وهذا المطلب لا يتحقق إلا من خلال:
 - ♣ دراسة المحتوى الوظيفي والبنائي لهذه الوسائل.
 - ♣ دراسة محددات النسق الاجتماعي ونوعية المصالح بينها.
 - ♣ فهم العملية الاتصالية (كنسق أو نظام اتصالي) ودور أجزائها ومحددات العلاقة بينها.
 - ♣ دراسة الوسائل في علاقتها بعناصر البناء المختلفة انطلاقاً من التفاعل بين النسق الاجتماعي (المجتمع) والبنية الإعلامية (وسائل الإعلام).
 - ♣ التوجه في الدراسات الإعلامية إلى فهم العلاقة بين المتغيرات الاجتماعية (البنيات الاجتماعية) وتموقع وسائل الإعلام ضمن هذه المتغيرات من خلال: شكل هذه العلاقة، الاتجاهات، القيم، الوظائف، بناء الرسالة، التأثير.
 - ♣ تكمن أهمية المنظور التحليلي الوظيفي لوسائل الإعلام في اهتمامه بالجانب النظري (السمات الخاصة بهذه الوسائل) والجانب التطبيقي (تحليل الدور الوظيفي لهذه الوسائل) وقد انتهج (تشارلز رايت Ch.Wright)، هذا المنظور، وحاول وضع نموذج وظيفي مصغر لدراسة النتائج المترتبة عن استخدام وسائل الإعلام الجماهيري.
- وفي هذا الصدد أجريت عدة دراسات في الولايات المتحدة الأمريكية والتي انصب اهتمامها في دور وسائل الاتصال ووظائفها وأهميتها في المجتمع ولقد تطورت هذه الدراسات والبحوث بتطور وسائل وأساليب البحث التي أصبحت كمية إحصائية، وكذا تطوير تقنيات المعاينة التي سهلت عملية تعميم النتائج، ومن ثم اكتسب الاتجاه الوظيفي في بحوث الإعلام صفة الأمبريقية الكمية، أو ما يسمى بالنزعة الأمبريقية في بحوث الإعلام.

حيث أسهم العديد من العلماء الوظيفيين في تحليل النسق الإعلامي انطلاقاً من الرؤية العامة للوظيفية، واستناداً إلى مفاهيمها الأساسية، ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين ساهموا في إرساء دعائم الوظيفية البنائية في بحوث الاتصال الجماهيري نجد كل من: (بول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld)، (روبرت ميرتون Robert Merton)، (ويلبور شرام W. Schramm)، (بيرنارد بيرلسون B. Berelson) و(تشارلز رايت Ch. Wright)، وتعد إسهامات هؤلاء الباحثين بمثابة حجر الأساس للدراسات المعاصرة حول وظائف وسائل الإعلام وأثارها على الفرد والمجتمع.

فيشير (لاسلويل Lasswell) أن وسائل الإعلام لها ثلاثة وظائف داخل المجتمع وهي: مراقبة البيئة، والربط بين أجزاء المجتمع، ونقل التراث الاجتماعي من جيل إلى جيل، وقد أضاف لها (رايت Wright) وظيفتين هما: التفسير والترفيه، بينما أضاف (لازارسفيلد Lazarsfeld) وظيفتين أخريين: منح المكانة، وتشجيع أو ترويح الأنماط والصور الاجتماعية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد قام (ميرتون Merton) بتحليل الوظائف الظاهرة والكامنة للتلفزيون باعتباره أحد أهم وسائل الإعلام الجماهيري. إن التلفزيون يؤدي وظائف اجتماعية هامة وواضحة، فله وظيفة إعلامية تتضمن إحاطة الأفراد بالأخبار الصادقة، وله وظيفة ترويحية، كما أنه يقوم بالدعاية والإعلان عن الأفكار والسلع والخدمات، إن هذا الجهاز - أو البناء بالمفهوم الوظيفي - يساهم في المحافظة على الاستقرار الاجتماعي، فهو يساعد على إيجاد الاتفاق على القيم الاجتماعية بطريقة فعالة، وإن لم تكن مباشرة، إن ما يشاهد على شاشة التلفزيون يعكس القيم التقليدية السائدة في المجتمع، ولا يتحدى المعتقدات التي تلقى قبولاً اجتماعياً. تلك هي الوظائف الظاهرة والمقصودة التي يقوم بها التلفزيون.

غير أنه من جانب آخر، قد يؤدي بعض الوظائف الكامنة، فهو يقوم في بعض المجتمعات بتحويل اهتمام الجماهير إلى مسائل أخرى -فرعية- مثل مباريات كرة القدم، والأعمال الدرامية الأجنبية المثيرة، وبذلك فإنه "يلهي" الجماهير عن همومهم، و"يشغلهم" عما يعانون منه في حياتهم الاجتماعية من مشكلات، وربما أدى ذلك إلى الإحساس بشئ من القناعة والسلبية واللامبالاة، وذلك يخدم الطبقة الحاكمة في الحفاظ على الوضع الراهن.

وبالإضافة إلى صياغة (ميرتون Merton) لمفهوم الوظائف الظاهرة والكامنة، وتطبيقه على الإعلام، طرح فكرة أخرى هامة، وهي: "محتوى الذوق الهابط" و"الذوق الرفيع" كظواهر متكررة تؤثر في سلوك الجمهور المتلقي. (يعني محتوى الذوق الهابط أن بعض ما يعرض على وسائل الإعلام قد يحط من مستوى الذوق كالعنف الزائد، وتصوير الأساليب الإجرامية والإغراق في تفاصيلها، ودراما الرعب، والبرامج والمواد الإباحية، والموسيقى الصاخبة. أما محتوى الذوق الرفيع فيعني المواد الإعلامية التي ترتقي بسلوك الجمهور وعواطفه وفكره كالدراما الهادفة، والأغاني والموسيقى الراقية، والبرامج الواعية المستنيرة والبناءة).

من بين الدراسات التي اعتمدت على التحليل الوظيفي الدراسة التي قام بها (ميلفين ديفليور Melvin Defleur) حول محتوى الذوق الهابط لوسائل الإعلام، وذلك من خلال تقسيم مضامين الوسيلة الإعلامية إلى محتوى ذو مستوى هابط، ومحتوى لا يثير الجدل، ثم محتوى الذوق الرفيع، أما عناصر النظام الاجتماعي الذي يحدث بداخله مستوى

الذوق الهابط فهو حسب (ديفلير Defleur) يتكون من الجمهور هيئات البحث، الموزعون المنتجون والممولون، وكالات الأنباء، نظم الرقابة وهذه العناصر تتفاعل في تحديد المحتوى المسموح وغير المسموح، وتندرج كل وسائل الإعلام ضمن هذا النموذج من النظام الاجتماعي.

كما تعتبر نظرية الاستخدامات والإشباع تجسيدا للمقرب الوظيفي بحيث كشفت عن العلاقة بين الاستخدام والإشباع في مجال وسائل الإعلام، أي تحديد دوافع استخدام الجمهور لوسائل الإعلام ومبرراته والإشباع المحققة من جراء ذلك الاستخدام، ولعل ما توصلت إليه هذه النظرية أن الجمهور ليس سلبيا، وان العلاقة مع وسائل الإعلام تحتكم إلى التفاعلية بين أهداف الجمهور ودور المتغيرات الوسيطة في تحديد هذه الأهداف وسعى وسائل الإعلام الجماهيرية إلى إشباع مقاصد الجمهور وحاجاته.

ونشير أخيرا، إلى أن الوظيفيين قد ناقشوا بعض القضايا المرتبطة بتأثير وسائل الإعلام على الأفراد والجماعات، ونالت قضية تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية في عملية التنشئة الاجتماعية اهتماما خاصا، فثمة اتفاق بين الباحثين على أن الأسرة والمؤسسة الدينية وجماعات الأصدقاء والرفاق والمؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام هي الأدوات الأساسية للتنشئة الاجتماعية، أي أن وسائل الإعلام تمارس دوراً في عملية التنشئة أو بتعبير (ميرتون Merton): "إن وسائل الإعلام تتولى جانبا من جوانب عملية التنشئة الاجتماعية".